تعقيبا على تصريح رئيس المخابرات المركزية الأمريكية:

ليس أمام العرب إلا المساعدة والإسهام في إيجاد عالم متعدد الأقطاب

وليس أمام الفلسطينيين إلا الإصرار على هيئة بديلة لرعاية عملية السلام

أخطر تصريح مشؤوم استمعنا إليه في الآونة الأخيرة هو ما صدر عن رئيس المخابرات المركزية الأمريكية في قمة كامب ديفيد.. إذ قال للرئيس عرفات بحضور كلينتون: (إن منطقة الشرق الأوسط بشعوبها وحدودها غير ثابتة.. بل قابلة للتغيير) !!!

جاء هذا التصريح في ذروة انفعال بيل كلينتون، داخل غرفة مغلقة، بعيدا عن المؤتمرات الصحفية وبرقيات وكالات الأنباء والمكاتبات والوثائق الرسمية. ومن أغرب الأمور، بعدما أفضى الدكتور صائب عريقات بوقائع قمة كامب ديفيد التي هو أحد شهودها، أن لا يتنبه الإعلام العربي في كل مكان إلى ما ينطوي عليه تصريح المسؤول الأمريكي الكبير من خطورة تتجاوز ما عداها وان لا يرى المسؤولون العرب في هذا التصريح نذر الدمار والويلات التي لا تستثني أحدا ولا ترحم الأجيال الآتية، وان ذلك كله هو التمهيد الواضح لتحقيق حلم الصهيونيين في (إسرائيل الكبرى) على أنقاض بلاد العرب وتتويج إسرائيل نائبا وواليا من قبل الأمريكيين على المنطقة كلها من الهند شرقا حتى المغرب غربا. فليس أدهى من التلاعب بالحدود إلا اقتلاع شعوب وزرع شعوب أخرى وفقا لمصالح الولايات المتحدة.

ويصعب الحكم والتأكد -من خلال وقائع الحال التي رواها الدكتور صائب عريقات في جلسة المجلس التشريعي الفلسطيني يوم الخميس الثالث من آب الجاري، ثم ما رواه ثانية في إحدى الندوات بمدينة رام الله يوم- هل كان تصريح رئيس المخابرات المركزية بحضور كلينتون عملا مدبرا مقصودا لتصعيد الضغط والإرهاب والبلطجة السياسية في إطار حرب الأعصاب ضد الرئيس الفلسطيني، أم زلة لسان أفصحت عن برامج ظلت موضوعة قيد السرية زمنا ثم لم تعد أمريكا تبالي بالمجاهرة بها، أم فلتة أعصاب باحت بسر خطير رغم إرادة صاحبه؟

يجب أن يشترك القارئ مع الكاتب في تقدير مثل هذه المسألة والتوصل إلى الاستنتاج الصحيح ولذلك نعيد هذا التصريح المشؤوم إلى سياق الرواية التي رواها عريقات عن الاجتماع السابع من الاجتماعات الماراثونية التي عقدت بين الرئيسين يوم الثلاثاء ٧/١٨ الماضي بحضور عريقات نفسه. كان ذلك اليوم هو اليوم الخامس عشر للمؤتمر وقد سبقته عشرات الاجتماعات في الأيام السابقة. وكان بيل كلينتون راغبا في التوصل إلى نتيجة قبل مغادرته إلى اجتماع قمة الدول الصناعية في اليابان. وسبق أن أوضح البرنامج المقرر الموزع على الأطراف أن الرئيس الأمريكي ملتزم بذلك الموعد، كأنما لغرس انطباع لدى المشاركين بأن تلك النقطة يجب أن تكون نهاية السباق. وبطبيعة الحال انقضت الأوقات التي أفصح فيها كل طرف عن مواقفه، بمن في ذلك الأمريكيون الذين قدموا ورقتهم، وكانت مسألة القدس حصرا هي محور النقاش بين الرئيس الأمريكي والرئيس الفلسطيني. ولكي يحصل بيل كلينتون على موافقة ياسر عرفات على المشروع الأمريكي بصدد القدس فقد بدأ بالتحدث عما ينتظر الفلسطينيين من مساعدات من الدول الصناعية حين يزف إليها نبأ التوصل إلى اتفاق، مما سيساعد في تأسيس الدولة المنشودة. فلما تحدث ياسر عرفات قائلا انه لا يستطيع بيع القدس وانه موكل بكنائسها كما هو معني بمساجدها، والخلاصة أن مبدأ السيادة على القدس بحدودها المعروفة قبل عدوان إسرائيل عام ١٩٦٧ هو الخط الأحمر التفاوضي للفلسطينيين. عند ذلك تكلم كلينتون لائما مهددا متوعدا معتبرا أن الفلسطينيين أضاعوا فرصتين في عامي ١٩٤٨ و١٩٨٧ وانهم يضيعون الآن فرصة أخرى. وأضاف إن الفلسطينيين سيفقدون الدولة والعلاقة مع أمريكا. وتخلل حديثه التصريح الذي ذكرناه في بداية هذا المقال.

نحن لم نستغرب انحياز الورقة الأمريكية لإسرائيل، ولا الضغوط التي وجهت بصورة منفردة إلى الرئيس الفلسطيني. وكيف نستغرب ذلك إذا كان جميع الرؤساء الأمريكيين يصفون علاقتهم بإسرائيل بأنها علاقة تحالف استراتيجي، وإذا كان كل رئيس أمريكي يعد رضاء إسرائيل واللوبي اليهودي جواز مروره إلى رئاسة الولايات المتحدة، وإذا كانت إسرائيل منذ نشأتها تعيش بفضل المساعدات الأمريكية؟

لقد كان الانحياز الأمريكي في هذه المرحلة أيضا واضحا منذ توجيه الدعوة للقمة دون أن يسبقها إعداد كاف كما طلب الفلسطينيون، وكان الفلسطينيون في الوطن والشتات يعرفون أن مفاوضات كامب ديفيد ستضع الفلسطينيين بين شقي رحى أمريكية - إسرائيلية. وأن المفاوضات ستكون مغطسا ساخنا لنزع الجلد الفلسطيني عن جسد القائد الفلسطيني.

ولكننا إزاء التصريح الصادر بحضور كلينتون، حول رؤية السياسة الأمريكية للمنطقة ولمستقبلها في مخططات الحقبة الأمريكية، نكتشف أن اتفاقية سايكس البريطاني مع بيكو الفرنسي عام ١٩١٦، وهي الاتفاقية التي قسمت بين الحلفاء الغربيين الجسم العربي من الإمبراطورية العثمانية المنهارة، لم تعد في نظر مخططي السياسة الأمريكية مرجعا معتمدا ونهائيا. وربما كانت الولايات المتحدة وإسرائيل قد عقدتا في تاريخ مجهول (أو أنهما تتأهبان) لعقد اتفاقية على غرار سايكس - بيكو لإعادة تجزئة الأجزاء وتقسيم البلاد العربية من جديد. ومهما يكن الأمر فإننا نعثر في الكلام الأمريكي، وهو في ذروة الانفعال الأهوج، على الوثيقة الشفوية التي تقدم التفسير الوحيد المعقول والحبل الرابط بين أحداث من قبيل الغارات الجوية المستمرة على العراق منذ عشر سنوات والحرب المستعرة في جنوب السودان والأحداث المروعة في أنحاء الجزائر وبعبارة واضحة أشمل : حالة الاصطراع المحلي الناشبة في المنطقة العربية والإسلامية منذ ثلاثين عاما على الأقل، ولها وجهان : الأول - انخراط كل بلد عربي وإسلامي في وقت من الأوقات، بمن فيها دول الخليج (!)، في حرب مع جاره. والثاني - انبعاث صراعات الطوائف والعرقيات والجهويات والأحزاب وحمامات الدم في داخل البلد الواحد.

هل كان يمكن أن تنشب هذه الحروب والصراعات في وقت واحد في جميع البلاد العربية والإسلامية عفو الخاطر أو بالصدفة المحضة؟؟ إن قانون الصدفة نفسه يأبى ذلك. ووراء ذلك بالضرورة جهد منسق مخطط تقوم عليه أجهزة سرية أجنبية تختلف باختلاف البلاد. ولكن حملة التضليل الإعلامي العولمي أغرقت الناس في أطروحات مفتعلة تتحدث عن أسباب ملفقة لتبرير هذه الحروب والصراعات. ومن هذه الأسباب نزاعات الحدود ومنها حاجة الأقليات إلى الحماية أو إلى التمثيل الديمقراطي بما يضمن مصالحها. إن ثمة حملة صارخة ضد العرب والمسلمين. وهناك احتضان غربي لكل أقلية قومية أو عرقية أو طائفية وتشجيع للعناصر المختارة التي تنضح بالحقد والضغينة والنزعة الانفصالية. وذلك على الرغم من أن عناصر السكان في هذه المنطقة من العالم عاشوا قرونا طويلة دون أن تبرز ظاهرة انفصالية جدية في صفوف ما يعرف بالأقليات. وليس معقولا أن تثور في زمن بعينه جميع الظواهر الانفصالية مرة واحدة دون أن تكون هناك يد واحدة تمسك بمقودها.

لكننا نجد معقولية أكبر كثيرا في قولنا إن ما قرأناه في كتاب أمراء الموساد لمؤلفه الإسرائيلي، الذي تحدث عن نشاطات الموساد في شمال العراق منذ أوائل خمسينات القرن العشرين، يجد رابطته الواضحة - العضوية تقريبا - مع الغارات الجوية الأمريكية البريطانية على شمال العراق في أوائل القرن الحادي والعشرين. إن كلا النشاطين جعل هدفه تجزئة العراق وفصل شماله عن جنوبه. ففي العراق تمارس أمريكا دورها ضد وحدة أراضيه جهارا نهارا من فوق السحاب، في حين تلعب في أفريقيا ضد وحدة أراضي السودان بخفاء وتكتم. أما في الجزائر فالأصابع التي تركت بصماتها على أحداث انقلاب الجنرالات وما تلاه من مذابح هي بصمات أوروبية استخبارية، لها نواحي اهتمام مشتركة مع الأمريكيين فضلا عن مصالحها الخاصة بها.

لقد كان لنا في الظنون ما يغني عن اليقين المدعم بالأسانيد، لأن من لم ينفعه ظنه لم ينفعه يقينه. غير أن فلتة لسان رئيس المخابرات المركزية بحضور رئيسه أبت إلا أن تؤيد قرائن الملاحظة الميدانية المتواترة. وبذلك أصبح الناس في منطقتنا على بينة من أمرهم، ولم يعد أحد من المتغافلين يستطيع أن يحتج بنقص المعلومات (في زمن المعلوماتية). فالولايات المتحدة ترى أن اتفاقية سايكس - بيكو التي قسمت البلاد العربية في ظروف انتهاء الحرب العالمية الأولى ليست نهاية المطاف في التقسيمات ولا غاية المنى في تفتيت قوى المنطقة. وهي ماضية قدما في السهر على تهيئة الظروف وتغذية العوامل التي تؤدي إلى اشتعال حرائق الانفصال واستنزاف الجبهات الداخلية، وتنفيذ مخططاتها بواسطة عملائها المحليين الذين تدفع لهم من جيب المنطقة لا من جيبها الخاص. ويبدو أن رجل السي - آي - إيه ورئيسه يشعران بالقدر من الثقة بهيمنتهم إلى الحد الذي سمح لهم أن يهددوا ياسر عرفات بأنه سيصبح في عزلة في المنطقة إذا لم

يوقع على ورقتهم !

عندما نتأمل في عدد الضحايا وفي الآثار المترتبة عموما على الحروب الداخلية في منطقتنا، نعرف مدى الاستنزاف الذي أصابها والأسافين التي اندقت في الروابط القائمة بين أبناء الأمة الواحدة. لأن ما يترتب على مخططات السياسة الأمريكية ليس إلا المذابح والآلام والثارات الضارية.

ولكن : متى كانت علة المتغافلين في منطقتنا قلة المعلومات؟

إن العلة بالأحرى هي نقص الإرادة لا نقص المعلومات. والعلة هي أن البعض يعيش من خوف الفقر في فقر، ومن خوف الهزيمة في عجز، ومن خوف فقدان اللحظة في خطر إضاعة الزمان.

كان بيل كلينتون يحاول كسر صمود ياسر عرفات في الموقف من القدس، إذ قال عرفات لكلينتون بأن حالة الضعف التي تعيشها الأمة لن تبقى أبد الدهر وسيأتي حتما من يحرر القدس ويرفع علم بلاده فوقها. فجاء جواب كلينتون المتضمن تفتيت المنطقة محاولة لإثارة الإحباط واليأس من مستقبل المنطقة ومن الاعتماد على الأمل في حدوث تغيير في موازين القوى.

ويعرف الأمريكيون في قرارة أنفسهم بأن المنطقة وحدة واحدة يسهل اجتماعها حول قضايا معينة منها القدس. ولهذا يفهمون أن الفلسطيني بمثابة مفرزة دفاع واستطلاع أمامية لصالح أمته على الجبهة التي تعني جميع العرب مسلميهم ومسيحييهم وكذا المسلمين والمسيحيين الذين لم يتصهينوا.. وهم يقيمون مخططاتهم بناء على هذا الفهم، من أجل أن تجيء المخططات ناجحة وتكون الضربات محكمة. وأكبر حصن للفلسطيني هو تعلقه بأمته وأمله أن تتغلب على ضعفها. ولذلك قال أريك شارون عندما كان وزير دفاع عام ١٩٨٢ : إن الاستراتيجية الإسرائيلية يجب أن لا تتوقف عند مدى دول المواجهة بل تمتد لتشمل العراق وإيران بل وباكستان.

وفي حين تفهم الجهات المسؤولة عن التخطيط ضد أمتنا حقيقة الروابط التي تربط هذه الأمة، فإنها لا تتوقف عن ضرب الأسافين والتشكيك في وجود رابطة أصلا. ويتذكر المرء دائما أن أبا إيبان أول وزير للخارجية الإسرائيلية ـ تقريبا ـ وكان من المستعربين وألقى خطبا بالراديو في زمنه باللسان العربي، تحدث في كتاب سيرته الذاتية الصادر باللغة الإنجليزية في السبعينات عن عدم وجود شيء اسمه القومية العربية. (أما اليهودية فهي قومية وديانة وجنسية وحزب وكل شيء !)

هل ظل بعد هذه التجربة في كامب ديفيد شك في أن بلدان المنطقة كلها معرضة لأفدح الأخطار، حتى لو حافظت على حالتها الراهنة كبقر الجنة لا تشطح ولا تنطح؟

هل هناك أمل في أن تضع الأنظمة العربية الراهنة أمام أمريكا خطوطا حمراء تمنع ـ بالأقل ـ تمزيق وانتهاك مبدأ وحدة الأراضي كما هي اليوم، وتحول دون المزيد من التقسيمات؟هل هناك أمل في أن تنهض القوى الشعبية التي أخرسها رعب القمع المحلي المستمر طوال نصف القرن الماضي، فتشكل من جديد (حالة) تؤخذ بالحسبان؟

ليس هناك عاقل يريد عداء أمريكا. ليس هناك من يتأبط شر استعداء صواريخها وقنابلها الذرية بالإضافة إلى بورصاتنا المالية. ولكن اجتناب ذلك شيء وحالة سقوط الهمة وإيثار السلامة التي نشاهدها اليوم شيء آخر. وما بين سياسة الاستعداء وسياسة التسليم ثمة درجات من المواقف والسياسات. وقد كان وجود الثنائية القطبية قبل انهيار الاتحاد السوفييتي مناخا مساعدا في حينه على وجود حركة عدم الانحياز وحركة التضامن الآسيوي الأفريقي اللتين شكلتا نوعا من الضمان لاستقلال الدول الناشئة حديثا. ومنذ تفردت الولايات المتحدة بدور الشرطي والقاضي والداعية الديمقراطي العالمي، ازدادت تبنيا لوجهات النظر ومشروعات العمل الإسرائيلية والصهيونية كاملة وخصت بلادنا ومنطقتنا بأكبر نصيب من الضربات والكوارث.

هناك تطابق في الأهداف ما بين أمريكا وابنتها المدللة، وأيضا هناك ما يمكن أن نعبر عنه بعلاقة الاستعارة والتبادل المستحيل في غير حالة أمريكا وإسرائيل : إسرائيل تستعير جسد أمريكا الهائل، وأمريكا تستعير رأس إسرائيل الضئيل.. إنها مهزلة مثلما أنها مأساة.

أما أن تصل الأمور بالولايات المتحدة لأن تصرح بأنها ترى منطقتنا بشعوبها وحدودها غير ثابتة وأنها قابلة للتغيير، فلا يخفى على الذين جعلوا من أنفسهم خدما يأتمرون بأمر الولايات المتحدة أن معنى هذا القول ينطبق عليهم وعلى كراسيهم في كل بقعة من بقاع المنطقة شرقها وغربها وشمالها وجنوبها ... ناهيك عن أن الولايات المتحدة باتت تتصرف في منطقتنا بالذات تصرف المتأله الذي يشرك رب العالمين في قوله " يا أيها الناس إن نشأ نذهبكم ونأت بخلق جديد " (!).

ونحن الفلسطينيين الذين قدر لنا أن نكون مفرزة أمامية للدفاع عن أمتنا ولموافاتها بالحقائق الساخنة نشعر أنه ليس أمام الأنظمة العربية والإسلامية ودول عدم الانحياز إلا أن تضع في أول أولوياتها الاستراتيجية أن تبادر فتساهم وتساعد في تحقيق فكرة العالم متعدد الأقطاب. وذلك بإجراء حوار جمعي فوري مع روسيا والصين اللتين تحركتا مؤخرا للحيلولة دون مشروع الصواريخ المضادة للصواريخ. ويبدو أن هذين القطبين الآسيويين اللذين يشغلان معظم مساحة القارة، ضاقا ذرعا بمحاولات الولايات المتحدة تخليد تفوقها وانفرادها بالهيمنة على العالم ودفع الآخرين إلى إنفاق المليارات في سباق التسلح على حساب التنمية والرفاه. فهاتان القوتان العظميان جادتان تماما في تشكيل موقف ضد التفرد والاستئثار واحتكار دور القاضي والشرطي العالمي. ولكل منهما اهتمام بالمنطقة وحوارات سابقة معها، ومن اليسير العودة إلى حوار صميمي من جديد. وخلافا لأية مرة سابقة، يجب أن ينطلق الحوار مباشرة إلى إفساح مكان لهذا الائتلاف الآسيوي لتكون له في بلادنا مصالحه النفطية والتجارية التي تحمله على انتهاج سياسة منافسة لسياسة الولايات المتحدة مع ما في ذلك من المغامرة بفقد المزايا التي توفرها سياسة عدم التعرض، بل وسياسة التقرب، وهي سمة السلوك الصيني والروسي حيال الطغيان الأمريكي.

ولا شك أن غالبية أهل الرأي في أوروبا أيضا يتمنون فرصا لتغيير الواقع العالمي الراهن وانبثاق أقطاب متعددة يكون لها وزنها ومشاركتها والحفاظ على مصالحها الخاصة بعيدا عن الوصاية الأمريكية

وتبعا لما أميط عنه القناع في كامب ديفيد، ليس أمام الفلسطينيين إلا أن يرفضوا تفرد الأمريكيين بدور الراعي لعملية السلام. وليكن الأمريكيون في هذه العملية بمثابة المحكم الذي تختاره إسرائيل، فهذه هي الحقيقة. وليختر الفلسطينيون محكما من جانبهم وليكن هناك ثلاثة محكمين آخرين من قارات آسيا وإفريقيا وأوروبا. أما أن نكرر تجربة التفاوض في الكاب ونتلقى ضغطا مضاعفا من إسرائيل وأمريكا معا يبلغ الحد الذي يهددوننا فيه بتقسيم منطقتنا كلها بل وتهدد فيه أولبرايت بقتل ممثلنا ومفاوضنا ورمزنا، فذلك ما لا يمكن أن يجلب إلا المقت والخسارة، وما لا يمكن معه حل أية مشكلة إلا مشكلة مرشح الحزب الديمقراطي آل جور الذي يلهث وراء كتلة أصوات المواطنين الأمريكيين مزدوجي الولاء الذين تملك إسرائيل ضمائرهم. أليس هذا هو حال اللوبي الصهيوني في أمريكا وحال آل جور نفسه !!!؟